تمهيد

في ظل قوس مرتفعة مصنوعة من الحجر الرملي، كانت مركبة قتالية من نوع برادلي، وفصيلة من الجنود الأمريكيين من الفرقة المدرعة الأولى يقومون بحراسة النقطة الرئيسة لدخول المنطقة الخضراء الشاسعة، شديدة التحصين على طول الضفة الغربية لنهر دجلة، حيث سلطة التحالف المؤقتة تحكم العراق القابع تحت الاحتلال. عندما وصلت إلى بغداد في صيف عام 2003 وشاهدت القوس أول مرة، افترضت خطأً أنها إحدى البوابات الأثرية للمدينة التي بنيت في زمن الخلفاء لردع الغزاة الفرس. وكان الجنود الأمريكيون يشيرون إليها باسم بدا أنه مأخوذ مباشرة من قصص ألف ليلة وليلة، فقد كانوا يسمون القوس بوابة الحشاشين.

في الصباح الباكر قبل أن تشتد حرارة أشعة الشمس، كانت حشود من العراقيين تجتمع عند بوابة الحشاشين. كان بعضهم يبحث عن عمل، بينما كان آخرون يحتجون ويرفعون لافتات تقول: «الرجاء إعادة فتح مصانعنا»، «نود رؤية السيد فراولي». وكان المتظاهرون يأتون بقضاياهم إلى هنا، وكانوا أحياناً يتحولون إلى مشاغبين. سلم رجل نسخاً من قائمة مطبوعة باللغتين الإنكليزية والعربية وعنوانها «أسماء ضحايا إعدام عائلتي». وكان الكثير من الناس يحملون رسائل موجهة إلى ل. بول بريمر الثالث، كبير المديرين المدنيين في العراق. بعد الإطاحة بالنظام القديم، وتطهير سلطات حزب البعث، وتحويل ناهبي الوزارات إلى هياكل جوفاء، لم يكن معظم العراقيين يعرفون إلى أين يأخذون مظالمهم واستدعاءاتهم، وأين ينزلون عبء تواريخهم الشخصية. وهكذا، تماماً كما كان المتضرعون لخليفة بغداد القديمة. فقد كانوا يجلبونها مباشرة إلى بوابة الاحتلال الأمامية. ولكن كان لدى عدد قليل من العراقيين أوراق اعتماد تخول لهم دخول المنطقة الخضراء، وكذلك ندر وجود المترجمين عند البوابة. وكان العراقيون يقفون عند أحد جانبي لفات من الأسلاك الشائكة، وهم يومئون ويحاولون شرح سبب حاجتهم لدخول المنطقة الخضراء، بينما كان

يقف على الجانب الآخر الأمريكيون في مناوبات، مدة كل منها اثنتا عشرة ساعة لحراسة نقاط التفتيش، وهم يحمون أجسادهم بدروع واقية؛ لمنع العراقيين من الدخول.

في أحد أيام شهر تموز/ يوليه خرجت امرأة نحيلة ترتدي حجاباً ورد ياً شاحباً من بين الجموع، ودفعت إلي برسالة مكتوبة بخط اليد. كانت مدرسة تناهز الثلاثين من العمر، وتضع نظارة على عينيها، وقد طلت وجهها بطبقة غليظة من مسحوق أبيض، بينما كانت تعابير وجهها رزينة لدرجة مبالغ فيها، وكأنها أشبه بممثلة إيمائية تؤدي دور الأسى والحزن. كانت الرسالة المكونة من 18 صفحة تطلب مقابلة مع «السيد السفير الأمريكي المحترم الرحيم، (باول بريمار)». وحوت الرسالة قدراً كبيراً من النصح بوجوب تسليح الشعب العراقي؛ كي يستطيع المحاربة ضد رجال العصابات. وكانت المدرسة التي كان يقل طولها عن خمسة أقدام، تريد تصريحاً بحمل رشاش من طراز AK - 47 والعمل، جنباً إلى جنب، مع الجنود الأمريكيين ضد الوحوش الذين كانوا يحاولون إعادة الطاغية، أو جلب قمع ذي أسلوب إيراني. وقد أبرزت لي التصريح المزيف بحمل السلاح، الذي يوضح رغبتها. وقد تركت وظيفتها بوصفها مدرسة للغة الإنجليزية في مدرسة للبنات في الحي الشيعي الفقير المسمى مدينة الصدر، بدلاً من الرضوخ لإملاءات المسلمين الأصوليين الذين تولوا زمام الأمور بعد الإطاحة بصدام، وأمروا المدرسات بتسميم عقول البنات ضد الأمريكيين.

وقالت المدرسة: «في البداية، عامل الأمريكيون الشعب العراقي معاملة حسنة. ولكن لاحقاً، لكون العراقيين وحوشاً ويهاجمون الأمريكيين ويقتلونهم، سيكون لهذا تأثير سيئ على نفسية الأمريكيين ومن ثَمَ سوف يعيشون في مزيد من العزلة عن الشعب العراقي». وقالت: إن لديها معلومات جاءت من أوثق مصدر في بغداد، ومن الأطفال في الشوارع، بأن الطاغية وأتباعه يقطعون رؤوس الأمريكيين (كان هذا قبل سنة تقريباً من أول عملية قطع رأس معروفة في العراق). وقد جعلتها القصص مريضة، وقالت: إنها تعاني صعوبة في النوم، وإنها توقفت عن الأكل بشكل شبه تام.

وعرج خارج الرتل رجل يحمل عُكازةً، وكانت ضمادة تلف يده اليسرى، إذ كانت إبهامه مبتورة. شرح للمدرسة بالعربية أن والده كان قد قتل بصاروخ في الحرب العراقية الإيرانية، وأنه هو قد أصيب بالشلل نتيجة حادث سيارة في أثناء فراره من الكويت عند نهاية حرب

الخليج، وأنه في مرحلة ما كان قد فقد قطعة الورق التي تخول له بالحصول على رعاية في المشفى. والآن وقد بات زمام الأمور بيد الأمريكيين، شعر بأن لديه الجرأة بطلب نسخة أخرى، ولهذا جاء إلى بوابة الحشاشين. وقد أجهش الرجل بالبكاء، وكان غير حليق وفي حالة يرثى لها، فأخبرته المدرسة بألا يحزن، وبأن يثق في الله وأن يتكلم مع الجنود الأمريكيين عند نقطة التفتيش. وعاد أدراجه ليقف في الصف.

واصلت المدرسة كلامها قائلة: «من فضلك، سيدي، هل بوسعك مساعدتي؟ يجب أن أعمل مع الأمريكيين؛ لأن صدام حسين حطم نفسيتي. ليس أنا فقط، بل جميع العراقيين. تدمير نفسي».

كان حديثنا موجزاً، وكان يمكن أن يكون أقصر لو أفلح سائقي ومترجمي اللذان اعتقدا أن المرأة كانت مختلة العقل تماماً، في إبعادي عنها في البداية. وقد رأيتها مرة أخرى بعد ستة أشهر: فقد حصلت، بطريقة ما، على وظيفة مترجمة للجنود الأمريكيين الذين كانوا يدققون في الهويات ويفتشون الناس الذين يدخلون المنطقة الخضراء عبر نقطة تفتيش أخرى. وقد غدت ممتلئة الجسم وحصلت على نظارة شمسية أنيقة المظهر.

نادراً ما أفكر في شأن العراق دون أن أتذكر المدرسة، وهي واقفة خارج بوابة الحشاشين؛ والحدة المباغتة في تحديقها وكلامها، والشعور بأنه كان فيها فجأة جنون وحقيقة. في ذلك الصيف الأول بعد وصول الأمريكيين، كان لدى العراق حلم من نوع قوي وواقعي ومشوش، انجرف في ضوء الشمس الأصفر بلا هوادة؛ فقد انهارت حيرة الحياة العادية وبهجتها، وبدأ يحدث شيء استثنائي خارج عن المألوف، ولم يكن أحد يعرف ماهيته ومساره، ولكنه كان أهم من أي شيء آخر، ولم يكن هناك متسع من الوقت.

علمت لاحقاً أنني كنت مخطئاً بشأن بوابة الحشاشين؛ إذ لم تكن قديمة، فقد شيدها صدام قبل سنوات في محاكاة تتسم بالفخامة والعظمة لبوابات بغداد القديمة. ولم تكن بوابة للحشاشين، فيما يخص العراقيين، فلم يعرف أحد منهم سبب هذه التسمية، بل إنهم أبدوا انزعاجاً بعدئذ. وقد سموها بشكل عادي باب القصر، حيث إن الطريق الذي يمر تحت القوس يؤدي إلى قصر صدام الجمهوري، على بعد ميل واحد أو نحو ذلك،

حيث مقر سلطة الاحتلال. أما تسمية «بوابة الحشاشين» فقد جاءت من كنية أطلقها الجنود المتمركزون هناك، التابعون لفرقة ألفا (Alpha): كان اختراعاً أمريكياً لنصب تذكاري اصطناعي عراقي، تسمية خاطئة لسراب. اشتكى العراقيون من الطريقة التي أعاد العسكريون الأمريكيون تسمية طرقهم السريعة ومبانيهم، وأعادوا رسم خطوط محافظاتهم. وقد أعاد ذلك إلى أذهانهم أن شيئاً غريباً وقوياً قد فرض عليهم دون موافقتهم، وأن هذا الشيء لا يتناسب بسهولة مع الحياة التي كانوا يعرفونها دائماً؛ وأنه يزعج ويغضب، على الرغم من أنه قد خلصهم من لعنة رهيبة. وكان التشابك يتطلب من كلا الجانبين، حصافة وصبراً، وهما عاملان لم يكونا متوافرين بالفعل في ذلك الصيف.

لقد التصق اسم «بوابة الحشاشين» بالأمريكيين في العراق، وفي نهاية المطاف ببعض العراقيين كذلك. كان الحشاشون الأصليون زنادقة مسلمين من القرن الثاني عشر، وقيل: إنهم كانوا يتعاطون الحشيش في حدائق من متع الدنيا قبل أن يخرجوا للقتل، وقد جعلوا من الاغتيال مشهداً علنياً للغاية، لدرجة أنه أصبح نوعاً من الانتحار أيضاً. كان الحشاش ينقض على هدفه عند ظهيرة يوم الجمعة في المسجد وهو يحمل سكيناً، وكان يعرف أنه سيلقى حتفه أيضاً. وعلى مر الزمن في العراق، مع تصاعد العنف، واختفاء بوابة الحشاشين خلف أبراج مراقبة وجدران من الكتل الخرسانية المقاومة للنسف، وحين بدأ كل شيء في التدهور، أصبحت التسمية اسماً على مسمى بطريقة مثيرة للذكريات تتسم بالغرابة. تخيلت مسافراً أجنبياً يسير تحت وهج الشمس، عبر البوابة الأمامية لمدينة قديمة ذات أسوار، اعتقاداً منه بأنه في أمان وموضع ترحيب في هذا المكان غير المألوف، دون أن يعلم أن أخطاراً خفية تتربص به في الداخل. في أوقات أخرى، كان الأجنبي هو الذي كنت أراه بمنزلة الحشاش الذي يصوب سلاحه من عليائه إلى القوس.

إن الطريق الذي أوصل أمريكة إلى بوابة الحشاشين طريق طويل، ولم يكن مباشراً قط. إن قصة العراق قصة أفكار حول دور الولايات المتحدة في العالم، والأفراد الذين تصوروا تلك الأفكار وعملوا بموجبها. إنها قصة ذات جذور عميقة في التاريخ، على الرغم من أنه لم يكن هناك أي شيء حتمي بشأن الحرب، وإن وقوعها ذاته لا يزال يذهلني بشدة أحياناً. في

أثنـاء إعداد التعزيزات التي لا مجال لنقضهـا تقريباً استعداداً للحرب، لم أجد قط أن من السهـل الإجابة عن الأسئلـة المتعلقة بالحرب، وكانت الطريقة التي دار فيها الجدل في البلد تبـدو غـير ملائمة كلياً للمدى الذي كنا نوشك على الغوص فيه. ذهبت أولاً إلى العراق، ثم كنـت أعود باستمرار؛ لأننـي أردت أن أرى عبر التعابير التجريديـة، ما كانت الحرب تعنيه في حيـاة النـاس. أحسست في ذلـك الصيف من عـام 2003 أنه لم يكن هنـاك شيء ثابت ومحـدد بعد، وكانت أهم الصراعـات هي تلك التي تدور في أذهـان العراقيين والأمريكيين علـى السواء. وقد يكـون معنى الحرب هو مجمل الطرق كافة التي فهـم بها أحدهم الآخر، والحدث الذي أقحمهم معاً. إنه في النهاية سيلخص الملايين من هذه اللقاءات التي تتم عن طريق المصادفة، الشبيهة بذلك اللقاء عند بوابة الحشاشين.